

مقابلة الآداب : ٣

توارد الخواطر

بين بعض ادباء العرب وغيرهم من ادباء الاجانب

بلم فزاد افرام البستاني اساذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

نبدأ ، في هذا القسم ، بذكر توارد الخواطر بين بعض ادباء العرب وغيرهم من ادباء الشعوب . وتوارد الخواطر هو اتفاق غير مقصود تتحقت بين بعض مشوجات ادمغة الاجانب ومشوجات ادمغة المفكرين بلفتنا . حتى اذا انتهينا منه عرضنا لذكر الاتفاق المقصود وهو ما نسنيه بالاقباس ، فالمجاعة ، فالتأثر .

ونحن أبعد من ان ندعي الإحاطة بجميع وجوه الشبه بين آدابنا وآداب الاجانب . لان عملاً كهذا ، اذا فرضنا امكانه ، يتطلب معدّات تجهيزية وافرة ، ووقتاً طويلاً ، وجهداً قوياً . وليس شيء منها في مقدورنا اليوم . اذا فلا يستغرب المطالع اذا رأى نقصاً في الاستشهادات ، او اهمالاً في الموضوعات ، او سهواً في ذكر الادباء . فليست غايتنا سرد جدول بالمعاني والصور المتشابهة بين ادبنا وادب الغير . انما قصدنا عرض بعض امثلة متشابهة من اقوال كتّاب اختلفوا عصرًا ، وبلدًا ، وتنشئةً ، ولغةً ، ودينًا ، نقيماً برهاناً على غايتنا من البحث في مقابلة الآداب ، وهي « ان لبعض الظواهر الحيوية تأثيراً واحداً في البشر على السواء ، يدفعهم الى اصدار حكم واحد منها تنوّعت ترغاتهم وشخصياتهم »^(١)

لكل امة ميول خاصة الى انواع من الفنون الادبية قد لا تروق لغيرها من الامم ؛ وذوق قومي في مظاهر من الجمال قد يراها غيرها ثانوية ؛ وارتياح شعبي الى اساليب من التعبير وطرق من الاستعارات والتشابه قد لا يُقرّها جيرانها بل قد لا يشعرون بها . وما هذه الميول ، وهذا الذوق ، وهذا الارتياح

(١) راجع ما قلناه هذا الصدد في مشرق كانون (الثاني من هذه السنة) (ص: ٣٥٠)

الآ صفات التنشئة العقلية الخاصة بكل أمة ، والناتجة من تأثير العصر والبيئة وما يجرّأه من عوامل الوراثة ، والعادة ، والزي ، والمدنية . فان العربي مثلاً اذا سمع بذكر « الجمل » في قصيدة او مقطوعة ادبية ، أنست به مخيلته ، وراحت تضرب امامه في مفاوز البادية ، راجعة ثلاثة عشر قرناً الى الوراء ، مثيرة امام عينيه مدنية ذاك الشعب الجاهلي المستندة الى الإبل بسباب متينة ؛ فيرتاح الى آثاره الادبية الاولى ويتذكر « الحدا . » وما كان « للجمل » من التأثير في تكييف نزعة العرب الى الفن الشعري . امّا اذا ذكرنا « الجمل » امام رجل اوربي أنشئ على الثقافة « المدرسية » ، فتراه ينفر ويشتم من فساد الذوق . وربما عدّ اللفظة من نوع الاهانات كما يستعملها الفرنسيون غالباً .

اذا لكل أمة نزعة خاصة الى تفهم الادب ، وتدوّق فنونه . على ان هذه المزايا والتزعات الخاصة اذا دقّقنا فيها النظر ، تراها غير متأصلة في نفسية الادب . فهي مظاهر خارجية يتلفّح بها موضوع الادب العام فتدنيه من البيئة الشعبية ، وتكيفت اساليبه ، وتعايره ، وصوّره . وقلّما تصل الى جوهره الذي هو واحد لأنه ناتج عن الفكر الانساني الواحد . وعليه ، فاذا حلّلنا جميع منتوجات الادمغة البشرية على اختلاف الأعصر والأمصار ، فافرنا جانباً كل ما هو ناشئ عن الازمنة والعادات الخاصة ، نجد جوهرها واحداً تنعكس على اعراضه الخارجية مدنيات الشعوب ببيئاتها المختلفة ؛ بل سلسلة متينة تجمع فيها حلقات الآداب القومية المتباينة ؛ ولكنها تظل واحدة يوحدتها الفكر البشري .

وادقّ برهان على ذلك ذاك الشبه الدقيق ، بل توارد الخواطر ، الذي تحدّثه بين جميع الشعوب في التعبير عن الموضوعات البشرية الثابتة التي لا تتغيّر بتغيّر المكان والزمان ، كموضوعات الانسان ، والحياة ، والموت ، والآخرة . . . وما تجرّؤه من العواطف ، والتأملات ، والخواطر .

الونسان

ومن قد نرى الصورة ذاتها التي استعملها وليد الحجاز ، علي بن ابي طالب ، في القرن السابع ، للتعبير عن مسكنة الانسان مثلاً ، تقطع عدة بلدان ،

وتجتاز عشرة قرون ، فيتمصلوا الفرنسي يسكال في القرن السابع عشر للتعبير عن ممكنة الانسان نفسها .

قال علي بن ابي طالب :

« مكين ابن آدم ! مكوم الأجل ، مكئون الملل ، محفوظ العمل ؛ تؤله البقّة ، وتقتله الشرقة ، وتنته المرفقة ! » (١)

وقال يسكال :

« L'homme n'est qu'un roseau, le plus faible de la nature, mais c'est un roseau pensant. Il ne faut pas que l'univers entier s'arme pour l'écraser. Une vapeur, une goutte d'eau, suffit pour le tuer. » (٢)

وليتبه المطالع لكلمة علي : « وتقتله الشرقة » ، وكلمة يسكال : « une goutte d'eau suffit pour le tuer. » فيرى كأنها ترجمة حرفية للأولى واني احييه ايضاً على ما كتبه يسكال في المادة الاولى من خواطره ، وهي المعروفة باللاثمائيين (Les deux infinis) فيرى كل ما ذكره عن الانسان وتناقضاته ، وتقلقه بين الممكنة والعظمة : الممكنة بمادياته ، والعظمة بروحه التي تجمله اعظم ثماً يقتله لانه عارف بضغفه وتفرّق الكون عليه . اما الكون المادّي فلا يعرف شيئاً من ذلك (٣) : وهذه العظمة مظهر خاصّ بانسان يسكال لم ينتبه له علي بن ابي طالب . وعلى كلّ فليقرأ المطالع ذاك الفصل بامعان وليجتمد في تلخيصه ، فلا يرى تلخيصاً اتمّ من هذا القول لعلي :

« لقد علّق ينياط هذا الانسان بضمة هي اعجب منه ، وذلك القلب . وله موادّ من الحكة ، واضداد من خلافا : فان صنع له الرجاء ، أذله الطمع ؛ وان هاج به الطمع اهلكه الحرص ؛ وان ملكه اليأس ، قتله الاسف ؛ وان عرض له الغضب ، اشتدّ به النيط ؛ وان اسعده الرضى ، نسي التحفظ ؛ وان ناله الحرف ، شلّه الحذر ؛ وان اتسع له الأمن ، استلبته التبرة ؛ وان افاد مالا ، اطناه النني ؛ وان اصابته مصيبة ، فضحه الجزع ؛ وان عضته الناقة ، شلّه

(١) علي بن ابي طالب : خج البلاغة - الروائع (١ : ١٤)

(٢) Pascal : *Pensées - Edition Margival* 7 - p. 12

(٣) Pascal : *op. c.* p. 1 - 18

البلاء: وان جهده الجوع، قد يهضم الضف: وان افراط به الشبع: كظفة البطنة. فكل نقصير به مضر، وكل إفراط له مفيد.

هذا الانسان، هذا المخلوق العجيب، الذي يرفقه الفلاسفة تارة الى درجات الملائكة، وينحدرون به طورا الى دركات الحيوانات العجم. ولكنهم يتفقون جميعا على حقارة اصله التي دل عليها الكتاب في مواضع عديدة^(١)، وقال عنها بوصفه:

« De quelque superbe distinction que se flattent les hommes, ils ont tous une même origine, et cette origine est petite »^(٢)

والمحذر بها ابو العلاء، حتى الجهاد، فقال:

والذي حارت ابرية فيه حيوان مستحدث من جهاد،

فجاوبه بكال ان ليس الانسان حيرانا اعجم ولا ملاكا، ولكنه قد يستطيع ان يكون كليهما

« L'homme n'est ni ange ni bête, et le malheur veut que qui veut faire l'ange fait la bête ».

هذا الانسان الذي نراه غليظا برغباته، طامحا الى ما وراء الوجود بتسنياته على الرغم من تعلقه بالمادة، حتى ان لامرتين يجعله الها هابطا من السماء. فيقول:

Borné dans sa nature, infini dans ses vœux.

L'homme est un dieu tombé qui se souvient des cieux.^(٣)

هذا الانسان، الغريب الأطوار، كان ولا يزال موضوعا مهما للآداب المختلفة، تشغى الشعوب، على تباين نزعاتها، في البحث فيه وابداء آرائها في ماهيته. فله اذن الدور المهم في درس «مقابلة الآداب». ولم تكن حياته القلقة على هذه الأرض، ومروته، ومصيره، لتقل عن ماهيته، تأثيرا في ادبها. الامم المختلفة، فتناولوها بالبحث ايضا كما تناولوا الانسان واتفقوا، عن غير قصد، في كثير من افكارهم عنها كما سنرى في العدد القادم.

(١) سفر التكوين (٢: ٢٠، ٣: ١٩، ١٨: ٢٧، ...)

Bosquet: O. F. Duch. d'Orléans (٢)

Launarine: Méditations, ١, 2 (٣)